

الرواية التاريخية: كذب تاريخي أم حقيقة مروية

حين يكتب الروائيون عن التاريخ فإنهم يقصدون الحاضر



التاريخ جزء من الحاضر (لوحة للفنانة جنان فتحي)

الإيمان بأن التاريخ "مدرسة حربية" يسمح بالتأمل النظري في الإنسان في علاقته مع عصره ومستجداته. يقول لوكتاش "من دون علاقة محسوسة بالحاضر، يغدو تصور التاريخ مستحيلا، بيد أن تلك العلاقة التاريخية لا تعني الإيهام بالأحداث المعاصرة، وإنما إحياء الماضي بوصفه ما قبل التاريخ الراهن، ومنح حياة شعرية لقوى تاريخية واجتماعية وإنسانية أوجدت، عبر مسار تطور طويل، الحياة التي نعيشها اليوم". إن كل حكي، تاريخا كان أم تخيلا، هو إنجاز فعل، وكل سرد هو نتاج عمل، أي أننا ننجز التاريخ كما ننجز عملا أدبيا. والحكي ليس مجرد تسجيل لوقائع، وإنما هو عرض ونظر وتاويل، كذلك الرواية التاريخية وإن تسربت بإهاب السرد التخيلي الصرف.

النقاد يميزون بين الرواية التاريخية كجنس سردي يستند إلى التاريخ وبين التاريخ المروي الذي يسرد الأحداث التاريخية

وجاهتها ولا قيمتها كمرآة لعصرنا، لأن الرواية التاريخية القيمة في نهاية المطاف لا تحدثنا عن الماضي بقدر ما تحدثنا عن أنفسنا في زمننا الحاضر، فهي رهينة علاقة مؤلفها بمرحلته وجمعه، والحاضر هو الأقدر على جعلنا نفهم الماضي ونهتم به. وهو ما تؤكد مارغريت يورسنار، صاحبة "مذكرات أريان" عندما اقترحت معالجة هذا الجنس معالجة تقوم على

كما فعل التونسي البشير خريف في رواية "برق الليل". لقد ذهب جورج لوكتاش في كتابه "الرواية التاريخية" إلى اعتبار التاريخ بنية تحتية لهذا الجنس، فهو الذي ينفسه، ويجعله في علاقة مضاعفة مع الواقع التاريخي، إذا سلمنا جدلا بأنه مدون بموضوعية، فهو من ناحية ينقل تقريرا أميناً في روحه وتفصيله، ومن ناحية أخرى يربط الصلة بالحاضر، الذي هو أيضا جزء من التاريخ. بيد أن المؤرخ باتريك بوشرون يعتقد أن المؤرخين يخطئون حين يقيمون عملا سرديا من جهة حقيقة الأحداث المروية وحدها، والأجدر بهم أن يسألوا باكثر عمقا أصداء النص في علاقته بواقع الذاكرة المعاصرة. فالنظر إلى الرواية كجميع لوناتق يقلل من شأنها، ولا يسمح باستخلاص

ما أسماه لوكتاش رواية تاريخية وواقعية في الوقت نفسه. ولكن النقاد يميزون بين الرواية التاريخية كجنس سردي يستند إلى التاريخ، ويتصرف فيه كاتبه كما يهوى على غرار فلوبيير في "صالمبو" والكسندر دوما في معظم رواياته من "الفرسان الثلاثة" و"الملكة مارغو" إلى "قلادة الملكة" و"خمسة وأربعون"، وحتى فيكتور هوغو في "أحدب نوتردام" وبلزك في "الشوان". وبين التاريخ المروي الذي يسرد الأحداث التاريخية وحياة أعلام حقيقيين بأسلوب حكاوي طريف يشد القراء، ولكنه يضيء تحويرات على الشخصيات والعقبات لجعلها قريبة من متلقيها، فيشوه الحقائق بتبسيطها حيناً، وتهويلها حيناً، وجعلها أكثر فتنه وجاذبية في أحيان أخرى. فالتاريخ، بخلاف السرد الأدبي، يتضمن بالضرورة تفسيراً، فكل تأكيد يبرر، وكل حدث يفسر ويربط بنتائجه حسب مبدأ السببية. فكيف يمكن التوفيق بين الحقيقة أو أرجحية حدوثها تاريخياً وبين الغاية الروائية؟ ثم ما هي الحقيقة التاريخية التي تسعى إليها مثل هذه الروايات؟ هل هي حقيقة الشخصيات أم حقيقة الأحداث أم حقيقة معنى التاريخ؟

السرد والتاريخ

خالفاً لآلفريد دو فينيي الذي يعتقد أن العظماء هم الذين يصنعون التاريخ، يرى والتر سكوت أن القوى الهيكلية والصراعات الاجتماعية والوطنية هي التي تصنعها. أما بلزك فهو ينافس في سلسلة روايته الضخمة "الكوميديا الإنسانية" دفتر الحالة المدنية، بالتوثيق روائياً للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والعمارية، ويرصد مصائر البشر في عالم لا يني يتغير. وأما الكسندر دوما فهو يتبارى مع التاريخ كي يجد له معنى من خلال مراعاة الأعمال التي توهم القراء بحقيقة ما يروي. وإذا كان لويس أراغون يصف الرواية بالكذب الصادق، فإن دوما يعتبرها صدقا كاذبا. أي أن الرواية لديه تضع الأحداث التاريخية الكبرى إطاراً لها، وتصنع داخله أحداثاً صغرى وشخصيات من عامة الشعب،

ففي الرواية التاريخية جمع بين جنس أدبي هو الرواية وعلم من العلوم الإنسانية هو التاريخ، يقوم الأول على الخيال، ويقوم الثاني على حقائق ووقائع موثقة. فالإي مدى يتواسح العنصران ليصبح التاريخ مسروداً، وما مدى صدقية التاريخ إذا خالطه الخيال؟

للأحداث والوقائع، وإعادة تشكيل لحقبة ما على نحو يجعلها حية وقريبة من مقتضيات الكتابة الروائية.

الشخصيات المتقاطعة

إن الرواية التاريخية تستدعي الماضي، وتعيد خلق أجواء فترة ولت وانقضت، فتقدم عالماً متجزاً في التاريخ، حيث تتقاطع مصائر الشخصيات المتخيلة مع شخصيات تاريخية، داخل إطار تُعاد تهيئته بدقة، فتمتزج الأجواء والأماكن والمشاهد الموصوفة بما اتسمت به حقبة من حقب التاريخ من أحداث سياسية وعسكرية وبنى اجتماعية ومواجهات أيديولوجية. وتعتمد، شأن الرواية المتخيلة، على حبكة درامية وتوتر وانفراج ووصف وحوار، ولكنها تختلف عنها من جهة تحديد الفترة الزمنية، وترتيب الأحداث وفق خيط رابط وإجلاء معنى يقبل الدلالة والتاويل.

ويشترط والتر سكوت ألا تكون الشخصية التاريخية هي الشخصية الحورية، بل يسند ذلك الدور إلى شخصية متخيلة تسمح بوضع المصير الفردي والمصير الجماعي في وضع مواجهة، ويستحسن ألا يكون البطل طرفاً في نزاعات الشخصيات التاريخية، بل يمكن أن يكون فرداً غمراً من الغوغاء، وفي ذلك قطبعة مع أبطال الملاحم.

فلئن كان للبطل الملحمي الهبة تحميه، يتلقى الأحداث بسلبية، ويعول عليها للخروج من مازقه، فإن البطل الروائي يغامر وحده متحدياً العالم وأخطاره، ويواجه مواقف تنحس شخصيته وتزيده معرفة بذاته، ليلحق

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

عندما نقرأ رواية ما، لا ننتظر أن يقدم لنا مؤلفها أدلة عمّا روى، حسبه أن يكون عمله مقنعاً، ولكننا لا نقف الموقف نفسه من المؤرخ لأنه يسرد أحداثاً وقعت فعلاً، ويتحدث عن أعلام وجدوا حقاً، فعمله يقتضي إعادة سرد تلك الأحداث وإحياء أبطالها، وإقناعنا، من خلال جهاز وثائقي المبعنصره ومفرداته، بصدق سرديته. أي أن ما يرويه له مرجعية واقعية يؤكدتها أرسيف سابق أو لاحق للخطاب الذي ينهض به، ولو أن تلك المرجعية دثرت إلى الأبد، وأن الأحداث صارت في عداد الماضي، وابطالها قضاوا نحهم، وربما تركوا آثاراً يستتظفها المؤرخ من بعدهم، ولكن التاريخ، كالرواية، تدور سردياته حول الغياب. فالروائي يحرك الزمن والمؤرخ يحرك الجثث، وكلاهما يتحدث عما ليس له وجود مادي، إلا ما ندر.

أما الرواية التاريخية، التي تدين بتأسيسها لوالتر سكوت برواية "ويغري" عام 1814، فإن تطورها وتصورتها المتعاقبة لم تكن بمعزل عن تطور التاريخ الذي تشكل في حقل مستقل، ووسع اهتماماته وحدد غاياته وضبط طرائق كتابته، وكلما نحا التاريخ إلى العلم ازداد تأكيد الرواية التاريخية على حاجتها إلى السرد، وبذلك أمكن لهواة التاريخ أن يجدوا ضالهم في الرواية التاريخية بوصفها تهيئة مغربية

الحكايات الشعبية المغربية تقاوم وطأة الوباء

ولا يقتصر برنامج الحكايات للمكتبة على الحكاية الشعبية، وإنما هناك برامج أخرى أعطيت انطلاقها لتواكب من فابروس كورونا. وتشير في هذا الصدد إلى أن البرنامج أنتج حكاية خاصة بفابروس كورونا جعل منها أداة للتعريف بالفابروس وأعراضه وللتوعية بضرورة اعتماد التدابير الوقائية من قبيل التباعد الاجتماعي والنظافة والتعقيم وغير ذلك، مؤكدة أن هذه الحكاية حققت هدفها باعتبارها تعتمد لغة بسيطة ومفيرة للإعجاب في آن واحد. وإلى جانب التوعية بالجائحة، تضيف العبودي أن خريجات برنامج "حكايات شهرزاد" الذي يروم توظيف الحكاية الشعبية كوسيلة فعالة في التاطير وترسيخ القيم والمهارات، ينشرن حالياً عدداً من العروض لحكايات شعبية من صميم التراث المغربي على مواقع التواصل الاجتماعي. وسجلت العبودي أن البرنامج الذي بلغ عدد خريجاته إلى حدود اليوم 225 حكواتية، بلقى إقبالا جيدا من طرف المشاهدين والمتابعين، كما يشهد إقبالا من طرف العديد من المدارس الخاصة التي تدعو خريجاته إلى تقديم عروض عن بعد لفائدة تلاميذها. وخلصت المتحدث إلى أن العروض التي يتم تقديمها في إطار البرنامج في زمن الجائحة وغيره عادة ما تتلوهما نقاشات للمواضيع التي تطرحها، وهو ما ساهم في تغيير النظرة النمطية إلى الحكاية من مجرد قصة تروى قبل النوم، إلى وسيلة للتاطير وتنمية التفكير النقدي وتوسيع ملكة الخيال، وكذا التخفيف من وطأة الحجر ومقاومة الوباء.

على تنظيم ورشات للقراءة والحكي وبلغات عدة هي العربية والفرنسية والإنجليزية. وحسب رتي، فقد "حرصنا مؤخرا على تقديم حكايات من صميم التراث الشعبي المغربي تحت مسمى 'حكاية زمان' لتلقت انتباه أطفالنا إلى تمييز الشخصية المغربية وحكايات تراثنا الغنية والحافلة بالحكم والقيم"، مؤكداً أن هذا البرنامج لقي "إقبالا كبيرا من جانب الصغار جعلنا نفكر في مضاعفة حصته في البرنامج الثقافي للمكتبة".

ويؤكد إبراهيم رتي، منسق خلية التنشيط الثقافي بهذه المكتبة، في هذا الصدد أن الحكاية تعتبر بمثابة "ركيزة أساسية للبرنامج الثقافي للمكتبة، باعتبار دورها في تربية الأطفال على قيم الخير والحب والجمال".

ويضيف رتي أن "الحكاية تعد أيضا واحدة من الوسائل الفعالة والجميلة والسهلة التي نعتمدها لغرس حب القراءة في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم"، مشيراً إلى أنه لذلك "دابت المكتبة الوسائطية منذ افتتاحها على تنظيم ورشات للقراءة والحكي وبلغات عدة هي العربية والفرنسية والإنجليزية".

وتقول طاي طاي غزالي، التي تلعب برائدة الحكاية الشعبية بالمغرب، في تصريح لوكالة المغرب العربي للأنباء، إن الحجر الصحي أعاد الاعتبار إلى التواصل بين أفراد الأسرة الواحدة ووفر وقتاً أطول لهم لاكتشاف بعضهم البعض، مبرزة دور الحكايات عن بعد في زمن تغيب فيه الأسرة الكبيرة التي كانت الجداث يظلمون فيها بهذا الدور، وتسود الأسرة النووية التي يختلي كل فرد فيها بهاتفه الذي أو لوجه الإلكتروني.

وأوضحت أن الحكايات الشعبية في زمن الحجر الصحي أفسحت المجال للاحتفاء باللغة العائلية، مشيرة إلى أن مبادراتها لقيت إقبالا من طرف العديد من الأسر التي يوفر بعضها طقوس الاستماع لحكاياتها وفق حلقة يجتمع فيها الوالدان والأبناء، وهي الحكايات التي تكتشف فيها الناشئة تنوع وغنى الثقافة المغربية بروافدها العربية والإسلامية والأمازيغية والأفريقية واليهودية.

وفي زمن جائحة كوفيد - 19 بالمغرب، وما فرضته من حجر صحي على الناس، برزت مبادرات عديدة تحثي بالحكاية الشعبية وطأة الحجر كوسيلة للتربية وتخفيف وطأة الحجر ومقاومة الوباء، ولاسيما بالنسبة إلى شريحة الأطفال الذين وجدوا أنفسهم فجأة مضطرين إلى المكوث في منازلهم بعدما تقرر تعليق الدراسة، وباتت أسرهم تجتهد في إيجاد سبل لهم لاستغلال الوقت داخل جدران المنزل دون شعور بالضجر.

الحكايات الشعبية وسيلة للتاطير وتنمية التفكير النقدي وتوسيع ملكة الخيال إضافة إلى ترسيخ ثقافة التسامح والمحبة

وفي هذا الصدد، تبرز مبادرة نجمة طاي طاي غزالي، رئيسة جمعية لقاءات للتربية والثقافات، ومديرة مهرجان مغرب الحكايات، التي قدمت طيلة شهر رمضان برنامجاً مسائياً يومياً على قناتها في موقع يوتيوب، عرضت خلاله ثلاثين حكاية من صميم التراث المغربي.



حكايات بين عمق التاريخ ومتعة الخيال